

إصلاح المنظومة التربوية بين الواقع والمأمول

- المدرسة والكتاب المدرسي -

د. عزوز زرقان

جامعة محمد البشير الإبراهيمي برج بوعريش

ت الاستقبال: 2020-10-05 ت القبول: 2020-12-27

ت النشر: 2020-12-31

Summary

This article translates an important issue in educational matters, and the matter is related to educational reform, the latter of which many articles have been published and about which many forums have been organized, during which experts and specialists in educational affairs presented various treatments that touched the important aspects through which the sector can be promoted and promoted in order to promote it. Civilized nations, and catching up with them is not a blind tradition that makes them imprisoned by reprehensible dependencies, but they took the reasons for their success in the light of preserving their origins, identity, and heritage.

From this standpoint, the purposes of this article are determined, as it sheds light on two important pillars of reform, namely: the school and the textbook, where the role that the school plays as an effective, positive and practical structure is not hidden from view, and it may provide many additions to the teaching and learning process, as well as The book is a very effective means of learning.

What is the hope for reform after experiencing the reality that the system has gone through? Then what are the specifications that must be characterized by each of them to achieve the desired goal?

Keywords: reform, education, school, book.

الملخص:

تترجم هذه المقالة مسألة مهمة في التعليمات ، ويتعلق الأمر بالإصلاح التربوي ، هذا الأخير الذي نشرت حوله الكثير من المقالات ونُظمت

بشأنه الكثير من الملتقيات ، قدّم خلالها الخبراء والمُختصّون في الشأن التربويّ معالجات متنوّعة مسّت الجوانب المهمّة التي من خلالها يمكن النهوض بالقطاع ، والارتقاء به قصد مواكبة الأمم المتحضّرة ، واللاحق بركبها لا تقليداً أعمى يجعلها حبيسة التبعيات المقيّنة ، ولكن أخذاً بما أخذت به من أسباب النّجاح في ظلّ المحافظة على الأصول ، والهويّة ، والنّراث .

من هذا المنطلق تتحدّد مقاصد هذا المقال ، حيث أنّه يسلّط الأضواء على دعامتين مهمّتين في الاصلاح، وهما: المدرسة ، والكتاب المدرسيّ ، حيث لا يخفى على أصحاب الشأن الدّور الذي تؤدّيه المدرسة كهيكّل فعّال إيجابيّ وعمليّ ، قد يقدّم الكثير من الإضافات لعملية التّعليم والتّعلّم ، وكذا الكتاب كوسيلة جدّ فعّالة في التّعلّم .

فما المأمول من الاصلاح بعد معايشة الواقع الذي مرّت به المنظومة ؟ ثمّ ما هي المواصفات التي يجب أن يتّسم بها كلّ منهما لتحقيق الغاية المنشودة ؟

الكلمات المفتاحيّة : الاصلاح ، التربية ، المدرسة ، الكتاب .

يُعتبَرُ التّعليم فنّاً غزير المذهب ، جمّ الفوائد ، له غايات شريفة ومقاصد سامية ، وحتّى يكون هذا العلم الذي يتلقّاه الفرد نافعا، لا بدّ أن يأخذ من مآخذ متعدّدة ، ومعارف متنوّعة ، وفنون شتّى ، ومناهج ومنهجيّات ، وأساليب وكيفيّات ، تُبنى على حسن النّظر ، والنّتبّت واليقين حتّى يصل بصاحبه إلى الجودة والارتقاء والتّحضّر والمواكبة ، ويبتعد منكّبا عن الزّلات والمغالط والهفوات التي قد تسيء إلى العملية التّعلّميّة أكثر ممّا تفيد. من أجل ذلك ينبغي التّدقيق بصورة كافية في كلّ ما يُقدّم للنّاشئة من حيث المحتويات المُضمّنة في الكتب المدرسيّة ، وإمعان النّظر فيها وتمحيصها وتحكيم البصيرة فيها ، ووضعها تحت المجهر ، لأنّ الغاية المنشودة هي تربيّة النفوس ،

وتغذية العقول ، وتهذيب الأجسام ، وترسيخ المبادئ والقيم والنّوَابِط بطريقة نَأْمُنُ فيها من العثور، وزلّات القدم ، والحَيْدِ عن جادّة الصّواب ، والنّتيه في بَيِّدَاء الوهم والغَلَط .

إنّ المنشود في تعليم النّاشئة يُرْجى منه أن يزيد الفرد المتعلّم ذكاءً في عقله ، وإضاءة في فكره ، ومهارة في سلوكه ، ونضرة في خلقه ، وتميّزاً في إدراكه ، وفطنة في تعامله ، وظرفاً في كلامه ، وفصاحة في لسانه ، وتمسّكاً بأصوله ، وحرصاً على ثوابته ، ودراية بواقعه ، وإحاطة بمستجدّات مجتمعه ، حتّى يكون أرسخ قدماً ، وأعلى رتبة ، وأكثر كفاءة ، وأشدّ مهارة ، وتكون حياته بالعلوم والمعارف زاخرة ، وحظوظه بعد التعلّم وافرة ، ويكون الأمل فيه معقود ، والنّهوض به مقصود .

هذه الصّورة التي نتصوّرها ، وتأمّل تحقّقها ، ليست بالغاية البعيدة المنال ، إذا ما تكاثفت الجهود ، وتوحّدت الرّؤى ، وتُفحّحت المفاهيم ، وحُدِّدت الأهداف ، وكُشِفَت الغايات ، وتجمّعت كلّ الطّاقات ، وهُدِّبَت ونُسِّقَت كلّ الأفكار التي تودّ فعلاً تحقيق ما يُسمّى بالإصلاح ، من قِبَل الجهات الوصيّة من أهل الاختصاص ، المُنتَمين للقطاع ، العارفين بخباياه ، والمُدرّكين لمسالكه ، وأصحاب الخبرة الضّالعين ، والسّابقين في التّجربة المُحتَكين ، أصحاب الدّربة والممارسة .

لقد شغلت فكرة الإصلاح التّربويّ والتّجديد فيه فكر واهتمام المنتميين إلى القطاع ، وصنّاع القرار السياسيّ والتّربويّ إن محليّاً، عربيّاً، دوليّاً، طوال عقود كثيرة ، وذلك للأهمية التي يكتسيها هذا الملفّ .

حيث كان لوجود بعض الأزمات والإشكاليّات الكبرى التي واجهتها بعض المجتمعات الإنسانيّة الأثر البالغ في إحداث ردّة فعل متميّزة وحضاريّة لمواجهتها. وقد أدركت هذه الأخيرة أنّ الإنسان هو محور القضيّة في هذه العمليّة ، وأنّ الاستثمار فيه يشكّل عاملاً لا يُستهان به ، لأنّ هناك نظاماً

تربويًا معيّنًا هو الذي كوّنه وشكّله وأعطاه هذه المقدرة الفائقة في تحصيل النّجاحات المختلفة والانتصارات الكثيرة ، التي لم تأت بصورة اعتباطيّة جزائيّة ، ولكنّها ثمرة جهود جبّارة ، كانت المعرفة أساسها ، والاستيعاب دعامتها ، والنّظر الجيّد في المناهج والطّرائق والأساليب ركنها .

ومنه فلا مجال ولا سبيل لمواجهة التّحديات إلّا من خلال مواجهة العلم بالعلم ، والفكر بالفكر والتّربية بالتّربية ، والتكنولوجيا بالتكنولوجيا، وهذا هو سرّ التّزايد في الاهتمام بتطوير المنظومة التربويّة ومحاولة إصلاحها وتجديدها وتطويرها في كل مرة ، لأنّها الرّهان الحقيقيّ في مجتمع المعرفة ، وعصر تدفق المعلومات التي لا حصر ولا حدّ لها .

نشير بداية إلى أنّ الإصلاح التّربويّ لا بدّ أن يمثّل رؤية تعكس فلسفة وفكرا، يراد تجسيدهما في الواقع، ولتحقيق جملة الأهداف والغايات المتّفق على تحقيقها سلفا، فالإصلاح لا يأتي بصورة اعتباطيّة جزائيّة، ولا يأتي أو ينفذ من فراغ، ذلك أنّه يمسّ جوانب مهمّة في حياة الإنسان داخل مجتمعه الذي هو مجموعة معقّدة من العلاقات المتبادلة في مختلف البنى السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة للنّظام التعليمي¹.

ونظرا للتّطور التّكنولوجيّ الرّهيب الذي فرض أنماطا جديدة للتّعامل مع العلم والمعرفة عموما، فإنّ المناهج التقليديّة أضحت عاجزة عن مواكبة هذا التّطور الواسع ، ولم تعد المناهج قادرة على تكوين الكفاءات وإعداد المهارات المناسبة لدفع العلم ، فكان لزاما وإلزاما على المشتغلين بأمور التّربيّة والتّعليم إعادة النّظر في المنظومات التربويّة ككلّ ، واقتراح - مقابل ذلك - بعض المشاريع التربويّة الغاية منها تجويد التّكوين ، وتطوير التّعليم ، بما يلائم كلّ جديد ، و

1- سعيد جاسم الأسدي، الإرشاد التربوي، الدار العلمية للنشر والتوزيع، الأردن، ط 1، 2003، ص 105.

أن يستثمر في التكنولوجيات الحديثة تحديدا اعتبارا للمواكبة التي تفرض نفسها بحدّة .

وبما أنّ المنظومة التربويّة لا تخرج عن كونها إحدى المنظومات التي تعوّل عليها الدّول في تقدّمها وازدهارها، فإنّ التّجديد والتّحديث فيها دليل صحّة وعافية، بل يُعدّ مسألة حضارية شاملة بأبعادها الاجتماعيّة والثقافيّة والسياسيّة ، على قاعدة وعلى أساس أنّ تقدّم المجتمع وتحقيقه لأهدافه الاقتصاديّة والثقافيّة والسياسيّة لا يتمّ إلا من خلال تطوير وتحديث منظوماته ككل، من أجل أن يكون الإصلاح التربويّ للمنظومة التربويّة الذي ترفعه الهيئات المسؤولة بين الحين والآخر دليل اهتمام ومواكبة ومُسايرة.

إنّ السياسات المختلفة في الوطن العربيّ ككل، والجزائر على وجه أخصّ تعكس جهودا لا يُستهان بها في سبيل الارتقاء بالتّعليم ونشره وتعميمه وتحسينه ، ولكن بالمقابل ظلّت جهود التّحديث والتّطوير والتّجويد تراوح مكانها في غياب الوعي الحقيقيّ بماهيّة هذه المنظومة التربويّة وسُبل دفعها لعجلة التّقدم لدى القائمين الرسميين عليها من جهة ، وبقاء إسهامات المختصّين والمهتمين بالتّربية وشؤونها رهينة الملتقيات والمؤتمرات والنّدوات والقرارات الصّادرة عن الجمعيات ، والمنظّمات العالميّة والمحليّة والإقليميّة، دون أن تعرف طريقها إلى التّجسيد. " ذلك أنّ الحديث عن الجودة في قطاع التّعليم أو عن الشراكة المجتمعيّة في وضع أو صنع القرار التربوي - ممّا يُعد من القضايا الهامّة التي يجب الانتباه إليها - لا يزال تجربة غربيّة لم تحن ساعة النّظر فيها ومعالجتها في المجتمعات العربيّة في ضوء متطلّبات المجتمع وإلحاحات التنمية البشريّة والاقتصاديّة"². أمّا الحديث عن جهد غربيّ موحد لوضع استراتيجيّات التّعليم فقد ظلّت القرارات السياسيّة تتقاذفه ، ولكون الجزائر تشهد

2- محمد الهادي عفيفي، في أصول التربية، مكتبة الأنجلو المصرية، دون طبعة، دون سنة، ص 133.

تطبيقاً شاملاً للإصلاح المدرسي ، فقد بات من الضروري الوقوف عنده ومعاينة سبل وآليات تطبيقه بين نجاحها وإخفاقها لمساعدة الوزارة المعنية على إنجاح تجربتها الإصلاحية ، والكلام هنا مُسلّط على دعامتين مهمّتين مقصودتين بالأصلح ، وهما : الكتاب المدرسي ، والمدرسة كمؤسسة للتكوين .

فماذا نقصد بالإصلاح في مجال التربية ؟

إن موضوع التربية أساساً له علاقة مباشرة بالفلسفات والأديان والمذاهب، وهي كما يعلم الجميع تتنوع في مؤدياتها وأساليبها تبعاً للأنماط السائدة في المجتمع وثقافته إلا أنه "على الرغم من الاختلافات في المعنى والتعريف لمفهوم التربية قديماً وحديثاً إلا أنها تنطوي على أبعاد مشتركة بصورة كلية أو جزئية"³ ، لأن التربية ليست أحد إفرازات العلم أو مكتشفاته، بل هي خلاصة تجارب إنسانية أصيلة تتضمن مجموعة من القيم العليا والمبادئ السامية والراقية، وهي بالنهاية موروث ينتقل من الآباء إلى الأبناء، ومن الأجداد إلى الأحفاد، حتى اعتُبرت التربية حياةً.

بالنسبة لكلمة التربية ومدلولاتها اللغوية ، يمكن للباحث الإطلاع عليها في مختلف معاجم اللغة ليصل إلى معنى واحد هو النماء عقلياً ، وجسدياً ، وخلقياً.

وإذا كانت التربية بالمعنى السابق فهي إذن فعل قصديّ منهجيّ يشمل جميع مقومات الإنسان من استعدادات وراثية ، وما يكتسبه من بيئته الاجتماعية من قيم وعادات، لأجل بناء الإنسان النموذج ، وإعداده لما يجب أن يكون عليه ، فممارسات الإنسانية وتراكمات التجارب الحياتية متنوعة تمثل وعاء الحياة الاجتماعية ومختلف تياراتها الثقافية ، من أجل ذلك فالتربية تعكس حاجة أو

3- علي حسين الدّوري، أصول التربية في مفهومها الحديث، الأردن، ط 1، 2009، ص

مشكلة اجتماعية تستدعي حلاً ، وهو ما يقتضيه الفعل التربوي الذي يعلم الإنسان فهم نفسه والآخر والأشياء جميعاً، وبذلك تنشأ العلاقات الفعالة بين الإنسان والبيئة الطبيعية والاجتماعية وتكون هي دعامة الخبرة.⁴

إلا أنّ هناك تغييرات تحصل - إن على المستوى المحلي أو العالمي - من شأنها أن تفرز تحديات جديدة ، خاصة ما تعلق منها بالثورة الرقمية ، وتطور وسائل الإعلام والاتصال، وما أصبح يشهده العالم من انفجار معرفي، يستدعي ضرورة إعادة النظر في المنظومة التربوية ، لأنها أساس كلّ تجديد وتطوير وتحديث اجتماعي ، ولا بدّ أن تمسّ المتعلّم أساساً - الإنسان - ومن هنا أتت فكرة الإصلاح التربوي. فما مقصود الإصلاح وما مقاصده؟

في اللغة: الإصلاح من الفعل - صلّح - : أي زال عنه سبب الفساد وانتقى. وقد ورد ذكر الإصلاح في القرآن الكريم في قوله تعالى: "إِنَّ أُورِثُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ"⁵.

والإصلاح معناه إقامة الشيء وتعديله بعد فساده واعوجاجه لتحقيق النفع وإزالة الضرر و"الإصلاح محاولة فكرية أو علمية لإدخال تحسينات على الوضع الراهن للنظام التعليمي سواء كان ذلك متعلقاً بالبنية المدرسية أو التنظيم أو الإدارة أو البرنامج التعليمي أو طرائق التدريس أو الكتب الدراسية وغيرها..."⁶

4- سعيد اسماعيل علي، أصول التربية العامة، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط 1، 2007، ص 98.

5- سورة هود، الآية 88.

6- محمد نيسر موسى، الإصلاح والتجديد التربوي في العصر الحديث، عالم الكتب، القاهرة، 1998، ص 07.

كما يشير عادة إلى: "عملية التغيير في نظام التعليم أو جزء منه نحو الأحسن، وغالبا ما يتضمن هذا المصطلح معان اجتماعية، واقتصادية وسياسية".⁷

كما يقصد بالإصلاح: "العمل الذي تلجأ إليه الوزارة أو المعنيون بأمر التربية، بهدف تحسين الأوضاع التعليمية والإدارية ، وإجراء تعديلات في قوانينها وإعادة تأهيل المعلمين، وإقالة الفاشلين منهم، وتدعيمها بمدرسين جدد ومدرسين جيدين على مهنة التعليم، حيث تبدو الأوضاع التربوية وقد لبست حلّة التجديد والتطوير على كل الأصعدة، فضلا عن امكانية تجهيز القطاع التربوي بالأدوات التعليمية وبالأجهزة الضرورية لحسن سير العمل".⁸

وبناء على ما سبق، فإنّ مفهوم الإصلاح مرادف لفعل التجديد، عندما يُغيّر من صورة الشيء القائم أو الممارس أو المعتمد ، ونُدخل عليه ما يجدد شكله أو فعله أو صورته. سواء تعلّق الأمر بتكنولوجيات التعليم ، أو مناهج الدّراسة وأساليب تعليمها وتقييمها، أو في صياغة القوانين التي تسيّر الإدارة ، وتنظّم مسيرة المعلمين.

وقد يصير هذا التجديد متبوعا بحالة من الخلق والإبداع ، أو بمعنى ابتكار الجديد الذي لم يكن له سابق وجود ، ولم يكن مألوفاً سلفاً، كما قد يتضمن التطوير الذي يعنى التحوّل بما يتماشى مع لغة ومتطلبات التحديث.⁹ ويمكن تلخيص مقاصده فيما يلي:

7- حسن حسين البيلوي، الإصلاح التربوي في العالم الثالث، عالم الكتب، القاهرة، 1998، ص 32.

8- جرجس ميشال جرجس، معجم مصطلحات التربية والتعليم، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط 1، 2005، ص 79.

9- شبل بدران، فارق محفوظ، أسس التربية، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ط 1، 1993، ص 93.

1/ يفيد الإصلاح التربويّ الرقيّ بحالته الزّاهنة إلى مستوى أحسن وأجود، ويتمّ ذلك وفق صيرورة تخضع لمنطق النّمو والتطوّر، كما يتمّ ذلك في بعض الحالات وفق طُفرات نوعيّة.

2/ الإصلاح الشّامل للمؤسّسة التّربويّة يرمي إلى تشييد نظام تربويّ متناسق وناجع قصد تمكين المدرسة الجزائريّة من مواجهة تحدّيات الحاضر والمستقبل المتعددة ، وتحقيق الشّروط العلميّة والتّكنولوجيّة التي بإمكانها ضمان تنميّة مستدامة.

ولا يجب أن يعتقد الفرد أنّ عمليّة الإصلاح تأتي في يوم واحد على عجل، أبداً، لأنّه يتوجّب على الفاعلين التّربويّين من مفسّشين ومعلّمين ومديرين أن يتملّكوا الإصلاح ، وعليه ، فهناك ثلاثة مراحل رئيسيّة وجب الوقوف عندها لتحقيق التّغيير الفعليّ على المدرسة.

المرحلة الأولى: مرحلة التّحسيس والإعلام: وهي الكفيلة بجعل الفاعل التربويّ يقبل الحديث عن طريقة مغايرة في العمل انطلاقاً من الطّريقة القديمة التي يمتلكها من قبل.

المرحلة الثانية: مرحلة تغيير التّمثّلات: فلا يمكن بناء تصوّرات سليمة منقطعة عن النّصوّرات السّابقة، وهي مهمّة يضطلع بها التّكوين بالدرّجة الأولى.

المرحلة الثالثة: مرحلة تغيير الممارسات: وتتمثّل في تكييف عمليّة التّدريس في القسم بناء على الفناعة.

لقد كانت العجلة في تسيير عمليّة الإصلاح ذات انعكاسات سلبية على جميع المستويات وبوجه خاصّ على المتعلّم والمعلّم محورا العملية التعلّميّة. فمن خلال الكثير من الدّراسات التي نقرأها مرارا عن المعايينات الميدانيّة ، وبناء على الكثير من النّقارير الواردة من قبل المفسّشين، وبناء على الكثير من القراءات المحلّلة لهذا الواقع التربويّ " تبين لكل ذي بصيرة شيوع الكثير من الممارسات الصّفيّة الخاطئة لدى الأساتذة ، والتي كانت وبالا على المتعلّم

والعملية التعليمية بصفة عامة ، والخطر أنّ الكثير من الأساتذة وبكل أسف يعتقدون بتلك الممارسات أنّهم يستجيبون لمتطلبات الإصلاح التي صاروا يلوكون عبارات منها بألسنتهم، سمعوها من جهات مختلفة دون وعي منهم بمقاصدها ومراميها،¹⁰ وهذا ما يدعو إلى الحكم بأنّ هناك خلا واضحا في التدرج عبر مراحل التكوين وتطبيقات ما بعد التكوين. ويمكن تلخيص هذا الواقع في نقاط على عجل:

1. غياب التخطيط والبرمجة وتوظيف الإمكانيات.
2. غياب الإعداد المسبق للسياسات والطرق والاستراتيجيات التي توجّه العمل نحو أهدافه وغاياته.
3. غياب عنصر التكوين زاد الطين بلة ، غياب الرّسكلة: فالأستاذ الذي لا يجدّد معارفه ولا يضبطها وفق المعطيات العلمية الجديدة في ظلّ الانفجار المعرفي والتدفّق العلميّ الجديد واللامحدود ، فإنّه لا يستطيع تقديم الكثير، إذ لا بدّ من مسايرة الواقع ومواكبة المعطيات الجديدة.
4. اعتقاد أنّ الكتاب المدرسيّ هو دستور العملية التعليمية التعليمية ، وأنّه يعوّض المنهاج ويلغيه بشكل حاسم.
5. الإهمال التّام للمحفوظ ، والمقصود المواد التي يعوّل فيها على الحفظ ، وسبب ذلك هو تصوّر بعض المعلمين أنّ الكفاءة لا تتضمّن المعرفة.
6. غياب المقاربة النّصيّة في الكثير من الأحيان.
7. غياب القراءة والمطالعة عند المتعلّم ، لقد صار هذا النشاط هملاً من قبل الجميع.
8. النقيّد الصّارم بالأسئلة المقترحة لتنشيط الدّرس في الكتاب المدرسيّ.

10- ميلود غرمول، الإصلاح في المنظومة التربوية، محاضرة أقيمت بدار الثقافة، سطيف، بتاريخ: 2017/11/17.

9. الارتباك عموماً في تحديد الكفاءات المستهدفة من الوحدة التعليمية والأهداف المدرجة ضمنها.

10. انعدام، أو عدم فاعلية الأنشطة القبل صفية - عدم جدوى التحضير.

11. القفز على بعض الأنشطة بصورة عامة دون تخصيص أي نشاط في أي مادة، ومرّد ذلك عدم وعي الأساتذة بأهمية وقيمة بعض النشاطات فيجعلونها هَملاً.

وبناء على الملحوظات المقدّمة سابقاً ، نوّد في هذا المقام بسط الحديث عن الكتاب ، وعن المدرسة ، مع طرح بعض وجهات النظر التي وجدنا فيها صواباً . من منظورنا - وهذا حتّى نفسح المجال لكلّ من له صلات وثيقة بهذا الاختصاص ليقدم لنا المزيد ، ولا نكتفي فقط بآراء بعينها ، لأنّ الجديد يطلع علينا كلّ يوم ، وحتّى لا يعتقد القارئ لهذه الآراء أنّها تشكّل القول الفصل الذي لا مَحيّد عنه ، والذي لا يمكن تجاوزه ، بل العكس من ذلك تماماً ، إنّها في اعتقادي جهود تتظافر لتصل إلى الأُمثل المنشود ، الذي يحقّق الغايات والأهداف المرجوة ، قصد النهوض بالمدرسة عموماً ، والجزائرية منها على وجه الخصوص .

فما هو المأمول الذي ننشده سواء فيما تعلق بالكتاب المدرسيّ ، أو المدرسة في حدّ ذاتها ؟

وهنا أشير إلى أنّ الكتاب المقصود بالحديث هو كتاب " اللغة العربية " ، وقد وقع عليه الاختيار بحكم الاختصاص فقط .

الكتاب المدرسي أداة تعليمية معتمدة من قبل لجنة الاعتماد والتصديق التابعة للمعهد الوطني للبحث في التربية ، حيث لا يُعتمد إلّا إذا تحقّقت اللجنة من أنّه يترجم المنهاج ، وموافق لدفتر الشروط.

ويُعَدّ الكتاب من أهمّ الوسائل التّعليميّة ، فلا يُعقل أن يكون هناك تعليم وتعلّم دونما توفّر الوسيلة التي يتحقّق بها ، حتّى تكتمل المهمّة التربويّة ، من أجل ذلك ، فإنّ الكتاب الجيّد هو الذي تتوافر فيه جملة من الصّفات التي تؤهّله لأداء هذه المهمّة ببسر، لعلّ أهمّها : وضوح الأفكار ، وسلامة اللغة ، وبساطة التعبير ، والابتعاد عن التّعقيد ، وسموّ التّوجيهات ، واتّفاقه مع المنهج الذي أُلّف بموجبه ، وملاءمته للمستويات التّعليميّة التي وُضع لها ، وفضلا عن ذلك ، لا بدّ له من طباعة راقية ، ذات جودة وحسّن ، مع تصميم الغلاف بطريقة لافتة للنظر ، مع احتوائه على الأشكال والرّسوم التوضيحية الميسّرة والموضّحة للأفكار المختلفة ، والتي تجعل المتعلّم ينجذب إليها انجذابا.

وبالنّظر لهذه الأهميّة التي تكتسيها هذه الوسيلة التّعليميّة الفريدة ، فإنّني أتصوّر أن يكون الكتاب المدرسيّ فضلا عما سبق يتّصف بأشياء أخرى تزيد من شأنه وقيّمته وأدائه ، منها :

. أن يكون كتابا مواكبا لعصر تكنولوجيا المعلومات والاتّصالات ، ومختلف ألوان الوسائط التكنولوجيّة في عمليّة التعلّم والتّعليم.

- أن يُبنى الكتاب على منهجيّة علميّة تأخذ في اعتبارها مجموعة من الأسس:

1/ بناء الكتاب على مدخل كلّ في تعليم وتعلّم اللّغات ، وهو مدخل يدرّب المتعلّمين على مهارات اللّغة الأربعة: "الاستماع - التّحدّث - القراءة - الكتابة" بطريقة متكاملة من خلال دراسة كلّ موقف.

2/ بناء الكتاب بطريقة تدرّب المتعلّم على: " التأمّل ، التّساؤل ، التّفكير ، والتّدقّق " ، وأن يُنمّي لديهم الخيال المبدع ، مع تصوّر الواقع الافتراضيّ للمستقبل.

3/ بناء كتاب يحرص على تنمية قدرات المتعلم من خلال الخماسية الذهنية في عملية التعلم والتعلم وهي: "الاستماع والتحدث ، النظر والتأمل ، السؤال والمناقشة ، القراءة والتفكير ، الكتابة والتعبير " .

4/ بناء كتاب يعقد نوعا من المقاربة المعرفية ، والصّلات الودية بين اللغة العربية وبين العلوم الكونية ، كالعلوم الحيوية ، والعلوم الفيزيائية ، والاجتماعية ، والثقافية الفنية وغيرها .

لأنّ اللغة لغة حياة كريمة كرم النهر ، سخية سخاء الندى والمطر ، تمنح أسرارها لكل عاشق ومريد .

5/ بناء كتاب يعتمد الكثير من الشروحات للنصوص ، والكثير من الأفكار التي يمكن مناقشتها من خلال الاستماع والتحدث ، والتساؤل والمناقشة ، والتعلم الذاتي ، حتّى يتحوّل الموقف التعليمي من موقف يعتمد على التلقين إلى موقف يعتمد على النشاط والتفاعل ، والتفكير وحلّ المشكلات المستعصية .

6/ بناء كتاب يعي مقولة "اللغة هي الرحم الذي يصنع الفكر" حتّى يعتني الكتاب بالقيم الأخلاقية ، والسلوكات الحضارية التي تتسق مع رؤية المجتمع الجزائري العربي للكون والإنسان والحياة .

7/ بناء كتاب يقوم على اختيار النصوص وحسن تنوعها بين السرد والحوار والشعر والقصة قصد تنويع مجالات النشاط اللغوي ، وربط ذلك بلغة التلميذ واهتماماته المناسبة لكل طور على حده .

8/ بناء كتاب يحتوي الكثير من أنشطة التدريبات للطالب ، لأجل تطبيق ما تمّ تعلّمه من مختلف الأنشطة والدروس من مهارات متنوعة .

9/ بناء كتاب يقوم على أنشطة متنوعة فردية وجماعية قصد تشجيع المتعلم على الإبداع والابتكار .

11/ بناء كتاب يرُسِّخ بطريقة فعّالة روح الانتماء للوطن وللدين ، ولكلّ ما هو مُشكِّل للهويّة الوطنيّة ، حتّى يبقى المتعلّم مرتبطاً بوطنه وبجذوره ويحسّ بأصوله.

هذا عن الكتاب ، فماذا عن المدرسة ؟

من غير شك ، أنّ المدرسة تكتسب دوراً مهماً في السّياسة التّعليميّة للمجتمع بشكل عام، وفي حياة الطّفل - المتعلّم - بشكل خاص، لأنّه فضلاً عن الدّور التّعليمي في مجال القراءة ومجال الكتابة ، واكتساب المعارف ، فإنّ ثمة دوراً آخر يقع على عاتقها وهو دور التّربية أولاً، وتكوين شخصيّة المتعلّم ثانياً. ليس هذا فحسب، "فالمدرسة كذلك تساعد المتعلّم على فهم جيّد للواقع المحيط به، وحسن الاندماج فيه، والتّأقلم معه، حتى تساعد على حسن الاستكشاف وإشباع الحاجيات المختلفة ذهنيّة كانت أو ثقافيّة"¹¹ مع إعداده الجيّد لأجل الاستزادة فيها من أيّ حقل آخر، دون إغفال الحاجيات الاجتماعيّة عبر ربط العلاقات مع المتعلّمين ، وهكذا تنشأ لديهم روح الجماعة والتّمثّل بقيمها المختلفة قصد تمكينه من مواجهة المجتمع الواسع.

إنّ من أجلّ وظائف المدرسة ، أن تقوم بتربيّة مقصودة لطلّابها ، ذلك أنّ أسمى غاياتها تنحصر في تهذيب النّفوس ، وتنميّة العقول ، وتقوية الأجسام ، كلّ ذلك وفقاً لقواعد معيّنة ، وغايات مرسومة سلفاً ، وذلك بالاعتماد على خبرة أهل الاختصاص من خبراء، وهيئة تدريس، ومفتّشين ذوي كفاءات مميّزة ، وكذا على الكتب المقرّرة والمناهج الموضوعية ، والأساليب المتّبعة من قبل المدرسة في حدّ ذاتها والحريصة على تطبيقها بدقّة واهتمام ، فهذا كلّه يأتي في سياق أنّ المدرسة إنّما وُضعت لتقدّم العلوم والمعارف والتّربيّة بالدرجة الأولى.

11- عبد الحميد عبد الفتاح شعلان، السّياسة التّعليمية بين الواقع والمأمول، مؤسسة طنبية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط 1، ص 28.

ولأنّ المدرسة هذا هو دورها الفعّال ، فإنّني أتصوّر أنّ ثمة جهد كبير ومُعْتَبَر ينتظر أهل الاختصاص ، والتّخطيط ، ووضع الاستراتيجيّات ، للنّهوض بها ، وإخراجها ممّا علق بها من سلبيّات وشوائب لطالما جعلتها في قائمة المتأخّرين دوماً ، فما الأسس التي يمكن من خلالها إيجاد مدرسة فاعلة وفعّالة على جميع المستويات والأصعدة ؟

1/ العمل على إيجاد مدرسة تحاول نقل التّراث الماضي إلى الجيل الحاضر
عن طريق تبسيطه ثم انتقائه ، معتمّدة في ذلك على نظام تربويّ منفتح على التّحديث والتّقدم الحاصلين في واقعنا ، والابتعاد عن الانغلاق على الماضي والتشبّث به.

2/ العمل على إيجاد مدرسة لا تقتصر فقط على شحن المتعلّم بالمعلومات حتّى تتراكم لديه ، بل تعطيها معنى ودلالة وشكلا يندرج في بنية تكوين المتعلّم، فبقدر البحث عن القضاء على الأميّة عن طريق تعليم القراءة والكتابة والتّزويد بالمعارف، لابدّ بالمقابل أن تقوم بوظيفة تأسيس العقلانيّة والموضوعيّة والواقعيّة ، بمعنى تشكيل الفكر العلميّ الذي يحلّل ويناقش ، ويبسط وي طرح ، ويشرح المعطيات. وبذلك فالمدرسة تعطي المعرفة (إعلام) وتعلّم الفعل (التّكوين) للتأثير على المتعلّم. ومنه نخلص إلى أنّ طاقة المدرسة الديناميّة تتجسّد أو تكمن في جدليّة المعرفة والفعل.

3/ العمل على إيجاد مدرسة تقوم بالتّشعّش الاجتماعيّة والتّطبيع الاجتماعي، لأنّها تقوم بإيصال رسالة فحواها الأعراف والقيم والمبادئ والعادات وما شابه. ولتحقيق وظيفتها في تكوين المتعلّم، أتصوّر هذه المدرسة وهي تلجأ إلى استعمال مفاهيم عدّة ، على حسب الطّروف ، كمفهوم التّربية ، التّعليم ، التّدرّيس المستمرّ، التّوجيه والاختبار إلخ... وكلّها في الواقع مفاهيم تحيل إلى هدف واحد هو : التأثير على المتعلّم قصد تحقيق التّوافق مع المجتمع.

ومن أجل ذلك فهي مدرسة تقوم بحماية المتعلم من شوائب المجتمع وعيوبه (البيئة الخارجية) وهذا يساعده على اكتساب شخصية منسجمة ومستجدات التربية الحديثة ، لأنّ فصل المتعلم عن المجتمع أو الصورة التي يحملها عن المجتمع لن تكون في صالحه ، بل وجب العمل على تهذيب هذا التصور ، وتنسيقه في فكر المتعلم ، وتصحيح مختلف الأفكار الخاطئة مع إعطائه البديل .

4/ لا بد من محاولة العمل على إيجاد مدرسة تتماشى والمناهج الجديدة ، والمتغيرات الحديثة العلمية منها والتكنولوجية التي يشهدها عالمنا اليوم ، والشبكة العنكبوتية وصلت إلى كلّ العالم .

5/ محاولة إيجاد مدرسة تتماشى وثوابت المجتمع ، تحافظ على فكر المتعلم وعقيدته ، وتُعلِّمُ الوطنية الحقة ، وترسخ عنده روح الانتماء .

6/ أتصورها مدرسة توفر الخبرات والمهارات ، تحرص على اكتساب هيئات التدريس ذات الكفاءات العالية ، والمتكوّنة بشكل لائق ، لها حسن الدّربة ، وحسن الممارسة ، هيئات تدريسية خبّرت حقل التدريس والتّعليم ، ولها القدرة الفائقة في النهوض بالمتعلم فهُما وعملاً وخُلُقاً ، والأخذ بيده إلى برّ الأمان . وكلّ هذا يتوقف على فضاء التكوين .

7/ أتصورها مدرسة قائمة على حسن التخطيط والبرمجة ، وتوظيف الامكانيات ، مدرسة تعي جيّداً معنى الإعداد المسبق للسياسات والطّرق والاستراتيجيات التي تُوجّه العمل نحو أهدافه المقصودة ، وغاياته المنشودة بعيداً عن العشوائية والعجلة والتي عادة ما تكون لها انعكاسات خطيرة على الكثير من المستويات .

وفي نهاية هذه المقالة المتواضعة ، أعتقد أنّ الحديث عن موضوعات الإصلاح على مستوى التربية والتّعليم عموماً ، أو المنظومات المعتمدة فيها ، يتطلب جهداً معتبراً ، لا يمكن لهذه الأسطر أن تُوفّيه حقّه ، ذلك أنّها استهلكت بحثاً ودراسة ومعالجة وطرحاً ، من أجل ذلك أقول : ما لا يذكرك كلّهُ ، لا يتركّ جلّه ، وإنّما هي جملة من الآراء أردنا بسطها بين يدي القارئ النّهم ، للتعرف على

بعض المفاهيم الجديدة في المجال ، ومشاركة الآخرين أفكارهم ، لعلّ تلاقحها يُؤتي ثمارا غير معهودة ، وهي محاولة للوقوف على حقيقة الخلل الموجود حتّى يتسنّى لنا علاجه ، وبالتالي النهوض بالمدرسة الجزائرية ، وإعطاء بعض البدائل التي قد تسهم بطريقة فعّالة في التجديد المنشود .